أسئلة للعمرِ القادم

سعد كمّوني

كانت أسئلةُ النهرِ
تلاحقُ جدرانَ العتمةِ
بين الأعشابِ المَوْءودهْ
في لحم الغربهْ.
حيث الأفكار أصابعُ من نارٍ
لا تحرقُ إلاّ مطرحَها.
أو حين تُصادِف ماءً
تتقدم كي تحملَهُ
صوبَ فضاءٍ ما كانَ بعينيْ أحدٍ
أو كانَ وما عاد بمسؤولٍ عن ذكرِ الغيْم!

صوب فضاءٍ
يتهاوى من عجزٍ
فوق رمادِ الماءِ
فلا يتركه للريح
ولا ينفخُ فيه من روحه.
جدرانُ العتمةِ بين الأعشاب
تتثابتُ بين الأعشاب.
والأسئلةُ الكثّةُ
راح يلملمها النهرُ
ويحفظُها للعمرِ القادمْ.
تتدافعُ في أحرفها
أشياءُ يحركها الضوءُ
ويُلزمها أن تهمسَ في أذن الحلم الأسرارْ
أسرارَ اليقظةِ في غمرة موتٍ داكنْ.
. . .

هذي أسئلةٌ حملتها الأعينُ
من قَبْلِ ضلوعِ الرمل بتشييد بلادي
مذ كانت جذراً يتأسّس في خاطر غيمهْ
حين اندلعت برقاً/ رعداً
وانتبذت غاباً شرقيّاً
كان تماسكَ دهراً ضد الدهرِ
وحتّى افترّت شفتا تلك الغيمةِ
عن لمعانٍ باهرْ
قال الغابُ: ابتسمتْ
فارتقصت في الليل الأغصانْ
حتّى الأنساغُ ارتقصت فرحاً أو طربا
وامتلأتْ عينُ الأرضِ من المشهدِ
فاهتزّت غضبا
وانتبه الغاب،
رماداً صار،
يتناثر من بين أصابع ريح عاتيةٍ
في وادٍ مهجورْ
وانتبه الغاب:
حين اللمْعة كانت،
ما كانت من بسمهْ!
بل من ثقب ـ أحدثه السرُّ
المتعاظمُ في رحم الغيمهْ ـ
راحت تنهال النارُ
وما كانت من قبلُ النار!
. . . واندفع السر عظيماً في الأعينِ
يأخذ شكل الأسئلة الصعبهْ
وتحمّلها النهرُ ظلوماً. . وجهولا
. .
كان الرمل ومازال يعبّر عن سخط الأرض ونقمتها،
يبتلع الشمسَ
وذاكرة الشمس
ولا يقبل أن ترسمَ أسئلةُ النهر بُراقاً
يصعد بالماء بعيدا؛
بل يعلن هذا الرملُ الناقمُ
أن الكون مشاجبُ للنّارِ
وأنَّ الماء عدوٌّ ماكرْ. .
انطلق النّهرُ إلى الصحراءْ،

فتبدَّدَ في لحم الغربة.
كانت جدرانُ العتمةِ محنةَ أسئلة النَّهْرِ
قُبيلَ النار، وأثناء الرمل، وفي الأعشاب
....
للعتمةِ جدرانٌ تفترس الأشياءْ
تسحق عظم النّار،
فتنفلت الألوان كأسمالٍ باليةٍ
أو جثثٍ مهترئةْ
وتظلُّ النارُ السوداءُ مكوّمةً في الخطواتِ..
وتحرقْ!
....
للعتمة جدرانٌ تتحرّكُ حين البحرُ يشاء
وتُواقع أنثى الرّملِ
فتغمض عينيها...
بسرورٍ،...
ثم تبوح بما في الرحم الأسود
من نِفطٍ أسودْ
...
للعتمة جدرانٌ تفترس الأعشابَ
ولا تلمسُها،
بل تدفعُها كي تتجافى لغة اليخضور
عن الحاجات!
مزمنة حاجات العشبِ،
ومزمنة جدران العتمةْ.
والنهر تبدَّدَ في لحم الغربةْ
لكنّ النهرَ ـ ولا يقدر ليلٌ أن يبتلعَ الحلمَ
الضوئيَّ، وأن يمنعَ كلَّ النجماتِ دخولاً في الشمسِ
على مفترقِ الصّبح الآتي ـ
لكنّ النّهرَ ـ وهاتيك الأسئلةُ الكثّةُ
في شفةِ النارِ
وفي رحمِ الرملِ
وفي الأعشابْ ـ
راح يلملمُها النهرُ
ويحفظها للعمر القادم.
.....
الأعشابُ المَوْءودةُ مازالت
في خاطرها تلمعُ صرخاتُ النهرِ
وراء الجدرانْ
لا يمكن أن يرجع هذا النهرُ (تقول الأعشابُ)
ولا يمكن أن يتراجعْ.
ولذا؛
تتفقّد في الوأد نوافذَ
أسّسها الأجدادُ، فتلقاها
لا تجلب أيَّ هواء!
كانت أسئلة النهر غبارَ بيادرَ
يخترقُ الجدرانَ،
فيُحدِثُ في الغربةِ مشروعَ بلادْ.
كانت أسئلةُ النهر هواءً
يكشف ـ عن أمرٍ ما ـ أغطيةً
أحضرها البحرُ، وسمّرها
فوق الأعشاب الحيّةْ
وانكفأ البحرُ إلى عاداتهْ
النهر يلملم أنفاساً في الأرض
ويحفظُها للعمر القادم.
من يقنع هٰذي الأعشابَ بأنّ النهرَ
سيأتي في العمر القادمِ
خيّالاً فوق صواريخَ
توزّعُ في الكرةِ الأرضيّة زهرَ الليمونِ
وقدموسَ
ونخلاً
وسراجاً وهّاجاً؟
من يقنعُ هٰذي الأعشابَ المَوْءودةَ
أن النهرَ ـ وإنْ لملمَ أكثرَ أشيائهْ ـ
مازال عنيداً
ويسدّد ضدّ القحطِ
بأن يتلوَ آياتِ الأرزِ على رأس المسسبّي،
يتلوَ تدمرَ
وحمورابي؟!؟
لكنَّ الأعشاب المَوْءودةَ ـ واأسفي ـ
لا تبصرُ في جدرانِ العتمةِ
نقشاً/ عصفوراً
عيناه على مطرٍ قادمْ!
البحر الكالحُ مازال يهدّدُ
بالأغطيةِ السوداءْ،
يعزّزُ عشباتٍ مارقةً تتنكّرُ للأعشاب.
البحرُ الكالحُ ينسى،
أَوْ يتناسى،
أنّ المسسبّي هنديٌّ أصلاً
ويحاول منذ مئاتٍ
أن يغسل ماءَهْ
من دَرَن المالْ،
لن يَقبلَ
أن تتنكّر ترغلةٌ للعصفورِ بداعٍ ما،
أو عصفور للعشّ
وعشٌّ للقشّ
وقشٌّ للعشب
وعشبٌ للعشبِ المَوْءودِ، وللفلّاح.
.....
المسسبّي هنديّ أَصلاً
والماءُ حليف الماءْ
فليكنِ الماءُ لديَّ أصيلاً
وأنا أكفلُ عُشباً أخضرَ
يفتتح الأرضَ، وينشُر أسئلةَ النّهرِ الكبرى
وتذوبُ العتمةُ في الجدرانِ
وفي العشباتِ السوداءْ..
وأنا أكفل عشباً أخضرَ
يختتم الصحراء..

أيار ١٩٩٤